حوار سياسي مع صديقي الروسي

07-2-2003

هكذا أنتم أيها المسلمون تبالغون فى كل شئ. ثم ألم نتفق من قبل ألا نستشهد بالتاريخ؟ فكلانا يعرف أن التاريخ أغلبه ملفق. دعنى أناقشك فى أرقام وإحصاءات ملموسة. لقد تناقص سكان روسيا منذ عام 1992 بمقدار 3.5 مليون نسمة. تعرف ماذا يعنى هذا الرقم؟ انه يعادل إجمالى عدد المسلمين فى روسيا من الشيشان والداغستان والإنجوش والشركس والكارتشييف. بل إنه منذ عام 1999 وروسيا تفقد سكاناً بمقدار ثلاثة أرباع مليون نسمة كل عام. الناس عندنا يموتون ، والأحياء منهم يفضلون الصداقات على الزواج وحينما يتزوجون لا ينجبون، وإن انجبوا فطفلاً واحداً. لقد صار ترتيب بلادنا 141 فى قائمة دول العالم من حيث معدل الانجاب

بقلم د. عاطف معتمد عبد الحميد

هكذا كان المشهد، شمس طموح تكافح أشعتها للوصول إلى شوارع مدينة سان بطرسبرج الروسية بقلاعها الثقافية من قصور ومكتبات ومسارح لا أول لها ولا آخر. وعلى مقهى صغير يشاطئ نهر النيفا الذى انحبست مياهه ببرودة الشتاء القاسي ، جلس أندريه فى المقهى نصف المضاء يشاطر محمداً حديثاً مطولاً.

أندريه: هل قرأت ما تناولته صحف هذه الأيام عن الخطر الإسلامى القادم إلى روسيا؟

محمد : وهل للإعلام قصة سوى الشيشان؟!

أندريه : بل أقصد الزيادة الديموغرافية لمسلمى روسيا.

محمد: ما الجديد فى الأمر ؟

بدأ أندريه ، يتحدث إلى محمد التتري بقلق واضح عما نشر مؤخراً من دراسات أكاديمية حكومية ودولية عما يمكن تسميته "بتآكل الأمة الروسية" أمام أعداد متزايدة من المسلمين والصينين.

وعلى خلفية الحوار كان الصديقان يستدعيان إلى الذهن خريطة روسيا فى شمال أورآسيا بمساحتها التى تتصدر بها دول العالم (17 مرة قدر مساحة مصر) ولكن بعدد سكانى لا يزيد إلا بمرتين عن سكان مصر (145 مليون نسمة). وليت الأمر يقف عند هذا الخلل بين المساحة الشاسعة وقلة السكان بل إن الأمر يتخطى القواعد الطبيعية لاتجاهات سكان العالم التى تتجه على مدى التاريخ إلى الزيادة، أما فى روسيا فالسكان - وفى العقد الأخير- يتناقصون عاماً بعد عام.

* بعدما أخرج زفيراً ثقيلاً خاطب محمد صديقه قائلاً: يا سيدى الأمر لا يخرج عن كونه حلقة فى سلسلة التخويف الإعلامى من المسلمين. ولما لا تتحدثون عن التدهور الصحى والاجتماعى والنفسي لمسلمى روسيا ، وفى القفقاس خاصة، بين قتيل ومشرد ولاجئ بعد عقد من الحرب والدمار؟ بل دعنا نستعين بالتاريخ، ألم يهجُر مئات الآلاف من المسلمين أرضهم وعشائرهم أمام جحافل الجيوش الروسية التى غزت بلادهم ولم يعودوا إليها حتى الآن؟ اذهب إلى بلاد الشركس ، والكارتشييف، والأباظة والقبردين والبلقار والشيشان وداغستان وغيرها من البلاد الإسلامية فى جنوب روسيا وستسمع من الأجداد ذكريات حافلة بالظلم والعدوان.

* هكذا أنتم أيها المسلمون تبالغون فى كل شئ. ثم ألم نتفق من قبل ألا نستشهد بالتاريخ؟ فكلانا يعرف أن التاريخ أغلبه ملفق. دعنى أناقشك فى أرقام وإحصاءات ملموسة. لقد تناقص سكان روسيا منذ عام 1992 بمقدار 3.5 مليون نسمة. تعرف ماذا يعنى هذا الرقم؟ انه يعادل إجمالى عدد المسلمين فى روسيا من الشيشان والداغستان والإنجوش والشركس والكارتشييف. بل إنه منذ عام 1999 وروسيا تفقد سكاناً بمقدار ثلاثة أرباع مليون نسمة كل عام. الناس عندنا يموتون ، والأحياء منهم يفضلون الصداقات على الزواج وحينما يتزوجون لا ينجبون، وإن انجبوا فطفلاً واحداً. لقد صار ترتيب بلادنا 141 فى قائمة دول العالم من حيث معدل الانجاب. وبهذا الشكل ياعزيزى فإنه إذا ما استمر هذا الانحسار فان روسيا ستتقلص سكاناً الى نحو 100 مليون نسمة فقط فى عام 2025، بل سيهبط الرقم الى 70 مليون فى عام 2050. وهكذا تشير الدراسات إلى أنه بينما سيستمر تناقص سكان روسيا خلال الـ 15 سنة القادمة بنحو 6 % فانكم فى داغستان وانجوشيتيا على سبيل المثال ستزيدون بنحو 13% أرأيت نحن أمة تموت وانتم تتكاثرون.

* صديقي أندريه ، لماذا تتخذوننا أداة للمقارنة ، أنت تنتخب فى قراءتك، ألم تقرأ ما كتبه محللون روس حول الغزو الديموغرافى الأصفر لروسيا. حري بك أن تقلق من الغول الصينى المجاور والذى يهاجر سكانه على المناطق الحدودية فى شرق سيبريا. إن الاختناق الديموغرافى فى الصين لابد وان يجد له "متنفساً" فى سيبريا، ناهيك عن آلاف الشباب الذين يمتلكون مشروعات تجارية فى موسكو والمدن الكبرى ويحتكرون إغراق السوق الروسي بالبضائع الصينية زهيدة الثمن.

* نعم تذكرت أنك ممن يصدق ما يقدمه الجغرافيون حول الزحف الخفى لسكان الصين على أوربا عبر روسيا فى ظل اختلال سكانى قوامه 190 مليون نسمة فقط يسكنون أوربا الغربية وأكثر من ألف وخمسمائة مليون (مليار ونصف) تضيق عنها الحدود

الصينية، وما سجله الباحثون من أن عام 2015 سيشهد صعود الأقلية الصينية لتحتل فى روسيا ثاني أعلى تعداد سكانى بعد القومية الروسية.

* جميل إنك ما زلت تذكر هذا.

* عزيزى محمد لا تقس الأمور بهذا التحليل السطحى، ليست المشكلة فى العدد ، انظر إلى اليهود فى بلادنا يحتلون آخر قائمة الأقليات عدداً ومع ذلك هم أصحاب "البيزنس" ومشكلى الراى العام الداخلى بنفوذهم الاعلامى النافذ. قد تكونون أيها المسلمون أقل عدداً ولكنكم الاكثر راديكالية فى بلادنا. لم نجد من الصينين من اقتحم مسرحاً أو احتجز نزلاء مستشفى للمساومة السياسية فى حب أو صراع كما فعلتم فى القفقاس. على أية حال لقد كان حديثى عن تزايدكم عدداً مجرد ملاحظة بريئة.

* لا ادرى يا أندريه أهذا مجرد حسد ديموغرافى برئ؟ أم هو ديموغرافوفوبيا تشبه التخويف الإسرائيلى من الزيادة السكانية للفلسطينيين والتى كانت سبباً وراء التصفية الجسدية للآلاف العرب فى فلسطين. فالحرب العسكرية بهذا الشكل هي الميلاد الشرعى للحرب الديموغرافية. ثم إذا كنت تتحدث عن الحسد الديموغرافى البرىء فلك أن ترد إلينا مئات الآلاف من الذين قتلوا وشردوا واخرجوا من ديارهم وقعدوا عجزى وجرحى جراء التنكيل بهم فى حرب شنها القياصرة والسوفيت منذ القرن السادس عشر. . لو تأت لنا أن نعيش فى سلام من دون غزوكم لكنا فعلاً اكثر عدداً ونفيراً، ولكان لأطفالنا مستقبل أكثر أملاً.

* محمد هل عدت ثانية إلى جدلك الذى لا ينتهى ؟ ماذا تقصد؟ لم نقاتلكم لقد صادفناكم فى طريق توحيد دولتنا وتدعيم حدودها ، وحرى بك أن تعترف بفضلنا عليكم لقد قدمنا لكم جامعات ومدارس وبنية أساسية، لقد انفتحتم ثقافياً وعلمياً بفضل دخولكم فى دولتنا، واستقلالكم عنا مظلم لا عمر له.

* نعم نعم ، نسيت أنك ما زلت تحفظ تلك الدروس السخيفة التى تعلمناها فى المدارس السوفيتية.

* هون عليك أيها التترى الساخر، وإذا كان يقلقك مستقبل أطفال مسلمى روسيا فلن يكون أسوأ من مستقبل أطفالنا ، إن انتهاء الحرب قد يحمل لأطفالكم مستقبلاً مشرقاً ، أما أطفالنا فمستقبلهم أكثر قتامة، أتعرف ان أطفالنا -وهم مخزون الأمة الروسية ومدد أجيالها، تتزايد بينهم معدلات الإدمان وتعاطى الخمور والأمراض الجنسية فى هذه السن المبكرة و...

* دعني أكمل لك (قاطع محمد متهكماً) ستقول لى أنكم فى الشيشان وداغستان تهربون إلى بلادنا المخدرات التى تفتك بشبابكم وأطفالكم عبر حدود روسيا مع أذربيجان وجورجيا. نفس نظرية المؤامرة التى أصبح الروس أكثر إيمانا بها من العرب.

* في ظني إن الأخذ بنهج المؤامرة فى واقع التفسخ الاجتماعى والدينى الروسي هى لعبة سياسية رخيصة ، لن أنكر أنهم هرّبوا من بلادنا فى العقد الأخير نحو 40 مليار دولار مما شل اقتصاد البلاد وهم يفسرون ذلك الشلل بالركود الاقتصادى العالمى. ليس فى الأمر مؤامرة ياعزيزى كثير من أمراضنا من صنع أيدينا. صحيح أنه ليس منكم المسئول عن رفع نسبة متعاطى الخمور بين أطفال المدارس بنسبة ثلاث أضعاف عما كانت عليه فى 1993 ، ولتصل نسبة متعاطى المخدرات بين هؤلاء الأطفال بنحو 65 مرة عما كانت عليه فى نفس السنة، ولكن انظر هذه النسب المخيفة ولا توجد أية ارقام ملفتة عن هذه المآسى بين أطفالكم.

* هكذا يفكر بعض الساسة المتطرفون ويريدون أن يدمروا المخزون الجينى لأولادنا ، ياسيدى ألا يكفى أطفالنا تشرداً.

* إذا كنت تتحدث عن تشرد الاطفال اشاطرك الرأى بان اطفال الشيشان المشردين يعدون بالآلاف. ولكن أتدرى كم عدد الاطفال الروس المشردين انهم يفوقون المليون طفل. هل تذكر التقرير الذى نشرته الصحف وقرأناه سوياً منذ عدة أشهر، أتذكر أن عدد الأطفال المشردين فى موسكو وحدها يزيد عن الخمسين ألف طفل رغم أن مستوى الدخل فى هذه المدينة يفوق باقى مدن روسيا بخمس مرات.

* وما ذنبنا ياسيدي فى هذا، هل قاتلهم أحد وأخرجهم من ديارهم، إن تشردهم جريمة اجتماعية صنعها آبائهم وأمهاتهم. إلا إذا قلت - ولن استغرب - إن عصاينكم فى القفقاس وطلبكم الاستقلال أثر اجتماعيا على روسيا لدرجة تفشت معها ظاهرة امتهان الأطفال للسرقة والتسول.

* هون عليك ياعزيزى، المتسولون فى مترو موسكو وبطرسبرج هم من القفقاس وليسوا من الروس.

* لا تغالط نفسك ياصديقى أنت تعلم أن القفقاسي لا يتسول مهما اضطرته الظروف، أما من تتحدث عنهم فمحترفو تسول لا هوية لهم. أننا اذا ما ضاقت علينا أراضينا بمضايقاتكم نختار الرحيل والهجرة ، لن أذكرك بتتار القرم وأياديكم " البيضاء" على تهجيرهم، لن أذكرك بالشركس الذين هجروا من أوطانهم الى كل اراضى غريبة عنهم من اليونان فى الغرب إلى فلسطين والأردن فى الجنوب. لن أذكرك بالليالى السوداء التى عاشها آباؤنا فى صقيع سيبريا لخدمة هدف واحد هو تشتيت الشمل الإسلامى فى روسيا وعدم السماح لهم بتكون دولة إسلامية فبعثرتمونا شرقا وغرباً شمالا وجنوباً.

* يبدو أن الزمن عاود دورته علينا ونبحث الآن فى كل مكان عن مهجر نترك بلادنا إليه بحثاً عن حياة أفضل حتى وان بحثنا عنها فى شوارع تل أبيب المفخخة.

* شتان أن تهاجر بطوعك أو أن توضع عنوة فى قطار متجه إلى حيث لا تعلم.

* عدنا إلى التاريخ وشجون الماضى. لا أدرى إلى متى ستظل هواجس التاريخ تفسد علينا الحاضر وتسمم تطلعاتنا للمستقبل. دعنا نناقش قضايا أخرى، ما رأيك فى برامج التليفزيون الأسرية فى الفترة الأخيرة.

* جاءت إجابة محمد ابتسامة مبهمة ورسم على وجهه ملامح اللا تعليق !

** محاضر بقسم الجغرافيا-جامعة القاهرة دكتوراه من جامعة سان بطرسبرج، روسيا